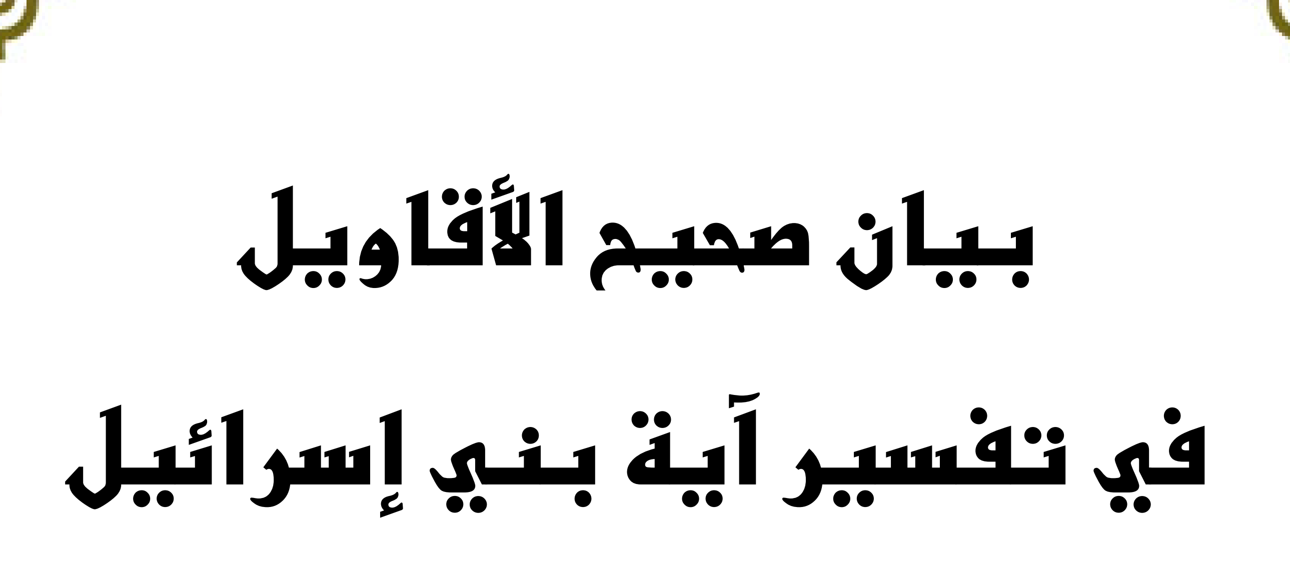


بيان صحيح الأقاويل في تفسير آية بني إسرائيل

تأليف

الشيخ الإمام الحافظ

عبد الله بن محمد بن الصديق الحسني

إصدار

جمعية آل البيت للتراث والعلوم الشرعية – فلسطين

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة موجزة للعلامة الجليل والمحدث النحرير
سيدي عبد الله بن الصديق الغماري الإدريسي الحسني

اسمه وكنيته:

هو سليل العترة النبوية الطاهرة الشيخ العلامة المحدث الفقيه الأصولي المفسر اللغوي المسند الشاعر الحافظ المجتهد وريث المعقول والمنقول وحيد عصره وسيد مصره ولي الله الصالح بلا نزاع سيدي ومولاي/ أبو الفضل عبد الله ابن العلاّمة أبي عبد الله شمس الدين محمد ابن الولي الكبير سيدي محمد الصديق الغماري الطنجي

نسبه:

يعود نسبه من جهة الأب والأم إلى سيدنا إدريس الأصغر ابن مولانا إدريس الأكبر فاتح المغرب ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن سيدنا علي وفاطمة عليهما السلام كما هو مدون في كتب التراجم وأمه حفيدة الولي الصالح سيدي أحمد بن عجيبة شارح الحكم العطائية

مولده:

وُلد رحمه الله تعالى في آخر يوم من جمادى الآخرة سنة ١٣٢٨هـ - ١٩١٠رومي بثغر طنجة.

نشأته ورحلاته:

نشأ في رعاية والده رحمه الله فتعلم على يديه مبادئ العلوم الشرعية وبه تأسس واستأنس وكرع من حياضه وتأدب بآدابه ،وبحضرته جالس العلماء الأفذاذ والصالحين فحفظ القرءان ثم شرع في حفظ بعض المتون ومعظم منظومة الخراز المسماة "مورد الظمآن" وجملة كبيرة من الألفيّة، والأربعين نووية، والأجرومية، قرأ بلوغ المرام، و مختصر الشيخ خليل.

ثم قرأ شرح الأزهري على الأجرومية على أخيه أبي الفيض، وحلّ قبل ذلك عباراتها حلا موجزًا على خاله السيد أحمد بن عبد الحفيظ بن عجيبة.

الرحلة إلى فاس:

ثم سافر إلى فاس بأمر والده لطلب العلم في جامعة القرويين وهي من الجامعات المعدودة في العالم الإسلامي مثل الزيتونة والأزهر والنظامية فقرأ فيها اثني عشر فنا من الفنون الشرعية المتعارف عليها في تلك الجامعات العريقة والتي يؤمر بتحصيلها كل عالم ـ مثل: شرح المكودي مع حاشية ابن الحاج، و شرح ابن عقيل وحاشية السجاعي، وشرح الخرشي على مختصر خليل، و شرح البخاري للقسطلاني والمحلي على جمع الجوامع في الأصول، والتوحيد لابن عاشر، و رسالة الوضع، وشرح القويسني على السلم.

وفي أثناء إقامته في فاس اجتمع بالسيد محمد بن جعفر الكتّاني، وأجازه السيد مهدي العزوزي الذي يروي عن السيد مرتضى الزبيدي المتوفى سنة ١٢٠٥هـ بواسطتين.

ثم رجع إلى طنجة بعد أن كرع وتضلّع وصار مقدّمًا على جميع أقرانه فدرّس بالزاوية الصديقيّة واجتمع عليه الناس وظهرت عليه آثار الصلاح والتحقيق والنظر ا.هـ

الرحلة إلى مصر:

وفي أواخر شهر شعبان سنة ١٣٤٩هجري _١٩٣٠رومي سافر إلى مصر والتحق بالأزهر الشريف ومن الجدير بالذكر انه حل عليه عالماً متضلعاً متقناً دون أن يُظهر ذلك، تواضعاً للعلم وأهله وطاعة لوالده، تكسوه آداب طالب

العلم فكرع من حياض العلم التي تجعل من طالب العلم في عرف الأزهر عالما وهو ما لا بد من تحصيله قبل التصدر للعلم في مصر ومما يعرف في مصر أن المتصدر للعلم إن لم يشهد له الأزهر بذلك لا تقبل أقواله وهذا مما هو جلي في مصر والزيتونة في تونس فقرأ شيخنا شرح الملوي على السلم وحاشية الصبّان، وجمع الجوامع بشرح المحلي، والرسالة السمرقنديّة في آداب البحث والمناظرة.وشرح الأسنوي على منهاج الأصول للبيضاوي ، وتهذيب السعد بشرح الخبيصي في المنطق.

ثم اتجه للفقه الشافعي تنفيذًا لأوامر والده فحضر في المنهج للشيخ زكريا، وشرح الخطيب على أبي شجاع وحضر دروس الشيخ محمد بخيت المطيعي في التفسير والهداية في الفقه الحنفي، وفي حاشيته على شرح الأسنوي على منهاج الأصول وأجازه إجازة عامة.

و لمزيد حرصه على تحصيل العلوم الشرعية كان يؤم بيوتات العلماء وكذلك نزولا عند رغبة والده ألا يدع عالما إلا ويجلس بين يديه فسخرت له الأسباب وفتحت له الأبواب وكان مقبولا عند الخواص والعوام ويدل ذلك على صلاحه وعلو كعبه ودرجة القبول، وتقدّم لامتحان العالمية (عالمية الغرباء) فحصل عليها، ثم حصل على عالمية الأزهر والامتحان فيها في اثني عشر فنًّا فنجح بدرجة ممتاز حتى أن شيخ الأزهر قال عنه : "إن الأزهر ليفتخر بحصول الشيخ عبد الله على شهادة العالمية".

تدريسه:

درّس شيخنا "رحمه الله" جمع الجوامع بشرح المحلي، وشرح الملوي على السُّلَّم، وسُلَّم الوصول إلى علم الأصول لابن أبي حجاب، والجوهر المكنون في البلاغة للأخضري، وشرح المكودي على الألفيّة، وتفسير النسفي، والأحكام للآمدي، والخبيصي على تهذيب السعد في المنطق، وتفسير البيضاوي.

شيوخه:

تلقى شيخنا صاحب الترجمة العلوم على أكثر من مائتي عالم نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر

شيوخه من المغرب:

١- والده علامة المغرب السيد محمد بن الصديق رحمه الله تعالى.

٢- أخوه الحافظ العلامة أبو الفيض أحمد.

٣- العلاّمة الشيخ القاضي العبّاس بن أبي بكر بناني.

٤- العلاّمة أبو الشتاء بن الحسن الصنهاجي.

٥- العلاّمة عبد الله الفضيلي.

٦- العلاّمة السيد عبد الرَّحمن بن القرشي العلوي.

٧- الشريف الحبيب المهاجي.

٨- المحدث عبد الحي الكتاني.

٩- العلاّمة السيد محمد المكّي بن محمد البطاوري.

١٠- السيد المهدي بن العربي بن الهاشمي الزرهوني.

١١- الملك إدريس بن محمد المهدي ابن العلاّمة محمد ابن علي السنوسي الشريف الحسني.

١٢- القاضي المسند الكبير عبد الحفيظ بن محمد بن عبد الكبير الفاسي الفهري.

١٣- العلاّمة الأثري الصوفي أبو القاسم بن مسعود الدبّاغ.

١٤- العلامة المحدّث السيّد محمد بن إدريس القادري الحسني الفاسي.

تونس:

شيخ جامع الزيتونة الشيخ طاهر بن عاشور التونسي المالكي.

مصر:

١- الشيخ محمد بخيت المطيعي الحنفي.

٢- مسند العصر الشيخ أحمد بن محمّد بن عبد العزيز ابن رافع الحسيني الطهطاوي.

٣- الشيخ محمد إمام بن برهان الدين إبراهيم الشهير بالسقا الشافعي.

٤- الشيخ محمد بن إبراهيم الحميدي السمالوطي المالكي.

٥- الشيخ أحمد بن محمد بن محمد الدلبشاني الموصلي القاهري.

٦- السيد بهاء الدين أبو النصر بن أبي المحاسن القاوقجي الطرابلسي.

٧- الشيخ محمد الخضر بن حسين التونسي.

٨- العلاّمة الشيخ محمد دويدار الكفراوي التلاوي الشافعي.

٩- الشيخ عبد المجيد بن إبراهيم بن محمد اللبّان.

١٠- عبد الواسع بن يحيى الصنعاني اليمني.

١١- الشيخ محسن بن ناصر باحربه اليمني الحضرمي الشافعي.

١٢- الشيخ عبد الغني طموم الحنفي.

١٣- الشيخ محمد بن إبراهيم الببلاوي المالكي.

١٤- الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري.

١٥- الشيخ محمد بن حسنين بن محمد مخلوف العدوي المالكي.

١٦- الشيخ عبد المجيد الشرقاوي.

١٧- الشيخ محمد عزت.

الحجاز:

١- الشيخ المحدث عمر حمدان المحرسي.

٢- الشيخ المحدث عبد القادر بن توفيق الشلبي الطرابلسي.

٣- الشيخ المعمّر محمد المرزوقي بن عبد الرَّحمن أبو الحسين المكّي الحنفي.

٤- العلاّمة عبد الباقي بن ملاّ علي بن ملاّ محمد معين اللكنوي الأنصاري المدني الحنفي.

الشام:

١- الشيخ محمد سعيد بن أحمد الفرا الدمشقي الحنفي.

٢- العلاّمة الورع بدر الدين بن يوسف الحسني الدمشقي الشافعي شيخ دار الحديث بدمشق.

٣- الأستاذ الشيخ عبد الجليل بن سليم الذرا الدمشقي.

٤- الشيخ محمد راغب بن محمود الطبّاخ الحلبي الحنفي.

٥- الشيخ يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني الشافعي البيروتي.

٦- الشيخ عطاء بن إبراهيم بن ياسين الكسم الدمشقي الحنفي.

شيوخه من النساء:

أم البنين آمنة بنت عبد الجليل بن سليم الذرا الدمشقيّة.

مؤلّفاته:

ألف شيخنا رحمه الله العديد من المصنّفات كلها نافعة نفيسة مفيدة تدل على بعد نظره وعمق غوصه في عويص المسائل مما جعله يلحق ركب السلف من حيث الفهم والاستدلال وطريقة التأليف بل فاق الكثير منهم والدليل على ذلك انه ألف كُتُبا لم يسبق إليها نذكر منها:

١- بدع التفاسير

٢- ذوق الحلاوة بامتناع نسخ التلاوة

٣- الفوائد المقصودة ببيان الأحاديث الشاذة المردودة

وله أقوال انفرد بها عن كثير من العلماء وله تحقيقات لم يسبق إليها مع تواضع قل نظيره ومن اطلع على كتابه الرد المحكم المتين علم قيمة هذا العالم وعظيم قدره وتضلعه في الرد والبحث والمناظرة وإعطاء المسائل حقها ومن صور تواضعه التي تدل على صلاحه تنبيهه على أخطائه التي وقع فيها وتراجعه عنها.

طلابه:

مما يجدر الإشارة إليه أنه لا يوجد اليوم على البسيطة من عالم معتبر يشار إليه بالبنان من أهل السنة والجماعة وغيرهم إلا ويكون جلس بين يديه أو انتفع بكتبه فمنهم من حفظ الأمانة وأعطى الشيخ حقه وأحال إلى كتبه ومنهم من ضيع الأمانة ونسب الأقوال إلي نفسه أو لم يحل إلى كتب الشيخ.

مواقفه:

للشيخ رحمه الله عدة مواقف فمنها ما هو علمي حيث تصدى لكثير من الآراء التي لا تصلح أن تصدر من عامي زيادة على أن تصدر من عالم كموقفه من نزول سيدنا عيسى عليه السلام رآدا فيها على أحد كبار مشايخ الأزهر، وكذلك رده على البناني في معنى الإله .

وكذلك رده على القائلين بالهجر بلا علة لازمة والهجرة إلى بلاد الكفار، وكذلك على عدم فهم كثير من المعاصرين علة تحريم نساء أهل الكتاب وكثير من هذه المواقف العلمية مما يطول ذكرها.

وأما ما ابتلي به الشيخ من علماء السوء فيصعب أن يتحمله إنسان ويكفي في ذلك محنته التي أودت بالشيخ إلى السجن الانفرادي مدة خمسة عشر سنة تقريبا مع الكيد ومحاولة إعدامه ولكن الله ناصر أوليائه وهو يفعل ما يشاء ويختار وتلك سنة الأنبياء والمرسلين وذلك نهج الأولياء والصالحين.

وفاته:

توفي رحمه الله سنة ١٤١٣هجري - ١٩٩٣رومي بطنجة ودفن فيها قرب والده.

نفعنا الله بعلومه وأفاض علينا من بركاته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

تنبيه:

نلفت نظر القارئ بأننا قد حرصنا بأن نطرح الكتاب على موقعنا كما هو من غير زيادة أو نقصان إلا ما كان من قبيل ترجمة المؤلف لكي يكون القارئ على بينة من هذا العالم الرباني على أن لا يمتنع أن يُلاحظ بعض القُراءِ أن ما في الكتاب لا يتوافق مع آرائهم التي يحملونها لذا نرجو من كل من يطلع على هذا الكتاب أن يكون منصفاً ناصراً للحق، وإذا ما وجد خطأً فليصلحه في الهامش ويبين ذلك ولا يمس أصل الكتاب فقد قال الشاطبي في حرز الأماني :

وإن كـــان خــرقٌ فادَّركْـه بفضـلة   مـن الحـلم وليصلحه مــن جـاد مقولا

إعداد:

قسم البحوث والدراسات

جمعية آل البيت للتراث والعلوم الشرعية

٢٩ رجــب ١٤٢٨هجري الموافق له ١٢ أغسطس ٢٠٠٧ رومي.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الأكرمين، وبعد فإن بعض المعاصرين فسروا آية بني إسرائيل بما هو بعيد عن معناها، ولا يجوز أن ينسب إلى أنه المراد منها، بل هو من بدع التفاسير التي يجب اجتنابها، وتنزيه كلام الله عنها.

ولذلك كتبت هذا الجزء لبيان تفسير الآية تفسيراً صحيحاً موافقاً لما دلت عليه، ومطابقاً لما أخبرت عنه، حسبما ذكره المفسرون من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، والله الموفق والهادي، وعليه اعتمادي.

قال الله تعالى: "وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إسرائيل فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا، فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا، إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا، عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا"(الإسراء الآيات من: ٤-٧). قوله تعالى:"لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ" عن عطية العوفي قال: أفسدوا المرة الأولى، فبعث الله عليهم جالوت فقتلهم، وأفسدوا المرة الثانية، فقتلوا يحيى بن زكريا عليهما السلام، فبعث الله عليهم بختنصر، أخرجه ابن أبي حاتم.

وقال ابن عباس: بعث الله عليهم في الأولى جالوت، فجاس خلال ديارهم وضرب عليهم الخراج والذل فسألوا الله أن يبعث إليهم ملكاً يقاتلون في سبيل الله، فبعث الله طالوت، فقتل جالوت، فنُصر بنو إسرائيل، وقُتل جالوت بيدي داوود عليه السلام، ورجع إلى بني إسرائيل مُلكهم، فلما أفسدوا بعث الله عليهم في المرة الآخرة بختنصر، فخرب المسجد وتبر ما علو تتبيرا، قال الله بعد الأولى والآخرة: (عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا). قال: فعادوا فسلط الله عليهم المؤمنين، رواه ابن جرير في تفسيره.

وقال قتادة: أما المرة الأولى فسلط عليهم جالوت حتى بعث طالوت ملكاً ومعه داود فقتله داود ثم رد الكرة لبني إسرائيل (وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا) أي عدداً (فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ) آخر العقوبتين (لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ) قال: ليقبحوا وجوهكم (وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ) قال: كما دخل عدوهم قبل ذلك (وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا) قال: يدمروا ما علو تدميرا، فبعث الله عليهم في الآخرة بختنصر، البابلي المجوسي أبغض خلق الله إليه، فسبى وقتل وخرب بيت المقدس وسامهم سوء العذاب، رواه ابن جرير، وقال ابن زيد في الآية: كانت الآخرة أشد من الأولى بكثير، فإن الأولى كانت هزيمة فقط والآخرة كانت تدميراً، وحرق بختنصر التوراة حتى لم يترك فيها حرفاً واحداً وخرب بيت المقدس، رواه ابن جرير.

وقال الضحاك في قوله تعالى:(عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ) كانت الرحمة التي وعدهم: بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

وقال قتادة: (وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا) فعادوا فبعث الله عليهم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فهم يعطون الجزية، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيرهما.

وكذا قال المفسرون: أن المرتين وقعتا قبل البعثة المحمدية لم يختلفوا في ذلك، وإنما اختلفوا فيمن سلط عليهم بسبب الإفسادين، ونقْل كلامهم يطول، فلينظره من أرده في كتب التفسير الآتية: تفسير ابن جرير وابن عطية والزمخشري والقرطبي والبيضاوي والنسفي وأبي حيان وابن جزي وأبي السعود والسيوطي والجلالين وحاشية الجمل على الجلالين.

وآثرت أن انقل كلام شيخنا بالإجازة العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره قال رحمه الله: والقضاء بمعنى الحكم وهو التقدير، ومعنى كونه في الكتاب أن القضاء ذكر في الكتاب والمراد بالكتاب التوراة، والتعريف للعهد، لأنه ذُكر آنفاً، ويجوز أن يكون الكتاب بعض كتبهم الدينية، فتعريف الكتاب تعريف الجنس، وهو الأسفار المسماة بكتب الأنبياء: أشعياء، وأرمياء، وحزقيال، ودانيال، وهي في الدرجة الثانية من التوراة، وكذلك كتاب النبي ملاخي والإفساد مرتين ذكر في كتاب أشعياء وكتاب أرمياء، وأولى المرتين مذكورةٌ في كتاب أرمياء في الإصحاح الثاني والإصحاح الحادي والعشرين وغيرهما، ويجوز أن يكون المراد بالكتاب: التوراة وكتب الأنبياء ولذلك أيضا وقع الإظهار دون الإضمار وجملة (لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ) إلى قوله (حَصِيرًا)، مبينة لجملة (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إسرائيل فِي الْكِتَابِ)، وهذه الآية تشير إلى حوادث عظيمة، بين بني إسرائيل وأعدائهم من أمتين عظيمتين، حوادث بينهم وبين البابليين وحوادث بينهم وبين الرومانيين، فانقسمت بهذا الاعتبار إلى نوعين، نوع منهما تندرج فيه حوادثهم مع البابليين، والنوع الآخر حوادثهم مع الرومانيين، فعبر عن النوعين بمرتين، لأن كل مرة منهما تحتوي على عدة ملاحم.

فالمرة الأولى هي مجموعة حوادث متسلسلة تسمى في التاريخ بالأسر البابلي، وهي غزوات بختنصر ملك بابل وأشور لبلاد أورشليم، والغزو الأول كان سنة ٦٠٦ قبل المسيح، أسِرَ جماعات كثيرة من اليهود ويسمى الأسر الأول، ثم غزاهم أيضاً غزواً يسمى الأسر الثاني، وهو أعظم من الأول كان سنة ٥٩٨ قبل المسيح، وأسر ملك يهوذا وجمعاً غفيراً من الإسرائيليين وأخذ الذهب الذي في هيكل سليمان، وما فيه من الآنية النفيسة، والأسر الثالث المبير سنة ٥٨٨ قبل المسيح، غزاهم بختنصر وسبى كل شعب يهوذا وأحرق هيكل سليمان وبقيت أورشليم خراباً يباباً، ثم أعادوا تعميرها كما سيأتي، (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا، إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) ثم تفيد التراخي الرتبي والتراخي الزمني معاً، والكرة الرجعة إلى المكان الذي ذهب منه، وذلك أن بني إسرائيل بعد أن قضوا نيفاً وأربعين سنة في أسر البابليين، وتابوا إلى الله سلط الله ملوك فارس على ملوك بابل الآشوريين. فإن الملك كورش[١] ملك فارس حارب البابليين وهزمهم فضعف سلطانهم، ثم نزل بهم داريوس ملك فارس ففتح بابل سنة ٥٣٨ قبل المسيح، وأذن لليهود في سنة ٥٣٠ قبل المسيح أن يرجعوا إلى أورشليم ويحدثوا دولتهم، وذلك نصرٌ انتصروه على البابليين إذ كانوا أعواناً للفرس عليهم، والوعد بهذا النصر ورد أيضاً في كتاب أشعياء في الإصحاحات العاشرة والحادي عشر والثاني عشر وغيرها، وفي كتاب أرمياء في الإصحاح الثامن والعشرين والتاسع والعشرين، وقوله:(وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا) وهو من جملة المقضى الموعود به، ووقع في الإصحاح التاسع والعشرين من كتاب أرمياء: هكذا قال الرب إله بني إسرائيل لكل السبي الذي سبيته من أورشاليم إلى بابل ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها، خذوا نساء ولدوا بنين وبنات وأكثروا هناك ولا تقلوا، وقوله: (إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) من جملة المقضى في الكتاب، وهو حكاية لما في الإصحاح التاسع والعشرين من كتاب أرمياء: وصلوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم السلام، وفي الإصحاح الحادي والثلاثين: يقول الرب ازرع بيت إسرائيل وبيت يهوذا، ويكون كما سهرت عليهم للاقتلاع والهدم والقرض والإهلاك، كذلك اسهر عليهم بالبناء والغرس في تلك الأيام، لا يقولون: الآباء أكلوا حُصرماً، وأسنان الأبناء ضرست بل كل واحد يموت بذنبه، كل إنسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه.

[١] هو ذو القرنين ويقال له غوروش.

ومعنى: (إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ) أننا نرد لكم الكرة لأجل التوبة، وتجدد الجيل، وقد أصبحتم في حالة نعمة، فإن أحسنتم كان جزاؤكم حسناً، وأن أسأتم أسأتم لأنفسكم، فكما أهلكنا من قبلكم بذنوبنهم، فقد أحسنا إليكم بتوبتكم فاحذروا الإساءة كي لا تصيروا إلى مصير من قبلكم.

(فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا، عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)، هذا الكلام من بقية ما قضي في الكتاب بدليل تفريعه بالفاء، والآخرة ضد الأولى، ولم يعدهم الله في هذه المرة إلا بتوقع الرحمة، دون رد الكرة، فكان إيماء إلى أنهم لا ملك لهم بعد هذه المرة، وبهذا يتبين أن المشار إليه بهذه المرة الآخرة، هو ما اقترفه اليهود من المفاسد والتمرد وقتل الأنبياء والصالحين والاعتداء على عيسى وأتباعه، وقد أنذرهم النبي ملاخي في الإصحاحين الثالث والرابع من كتابه، وأنذرهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام، فلم يرعووا فضربهم الله الضربة القاضية بيد الرومان.

وبيان ذلك: بأن اليهود بعد أن عادوا إلى أورشاليم وجددوا ملكهم ومسجدهم في زمن داريوس، وأطلق لهم التصرف في بلادهم التي غلبهم عليها البابليون، وكانوا تحت نفوذ مملكة فارس فمكثوا على ذلك مائتي سنة من سنة ٥٣٠ إلى سنة ٣٣٠ قبل المسيح، ثم أخذ ملكهم في الانحلال بهجوم البطالسة ملوك مصر على أورشاليم، فصاروا تحت سلطانهم إلى سنة ١٦٦ قبل المسيح، إذ قام قائد من بني إسرائيل اسمه ميثيا، وكان من اللاويين فانتصر لليهود وتولى الأمر عليهم، وتسلسل الملك بعده في أبنائه في زمن ملئ بالفتن إلى سنة أربعين قبل المسيح، دخلت المملكة تحت نفوذ الرومانيين وأقاموا عليها أمراء من اليهود كان أشهرهم هيرودس ثم تمردوا للخروج على الرومانيين، فأرسل قيصر رومية القائد سيسيا نوس مع ابنه القائد طيطوس بالجيوش في حدود سنة أربعين بعد المسيح، فخربت أورشاليم واحترق المسجد، وأسر طيطوس نيفاً وتسعين ألفاً من اليهود وقُتل من اليهود في تلك الحروب نحو ألف ألف.

ثم استعادوا المدينة، وبقي منهم شرذمة قليلة بها إلى أن وافاهم الامبراطور الروماني أدريانوس فهدمها وخربها ورمى قناطير الملح على أرضها كي لا تعود صالحة للزراعة وذلك سنة ١٣٥بعد المسيح، وبذلك انتهى أمر اليهود وانقرض وتفرقوا في الأرض، ولم تخرج أورشاليم من حكم الرومان إلا حين فتحها المسلمون في زمن عمر بن الخطاب سنة ١٦ هجرية صلحاً مع أهلها، وهي تسمى يومئذ إيلياء.ا.هـ ملخصاً، وإنما آثرته على غيره من التفاسير لأنه حرر الكلام على المرتين، وما ترتب عليها بما نقله عن كتب أنبياء بني إسرائيل وهي موافقة لمعنى الآية، وموضحة لما فيها مع بيان تاريخ المرتين بما لا يدع مجالاً للشك في أن ما قضي إلى بني إسرائيل في الكتاب قد حصل قبل ظهور الإسلام بمدة لا تقل عن ثلاثمائة سنة.

إذا علم هذا، فاتجاه بعض المعاصرين الآن لتفسير الإفساد مرتين باحتلال اليهود لفلسطين، وحربهم للعرب خطأ واضح، وقد رأيت رسالة للدكتور السيد إدريس الكتاني اسمها: العرب تحت وطأة الإفساد الأول لبني إسرائيل، خَطّأ المفسرين فيما ذهبوا إليه، وأن هذا من إعجاز القرآن، ويزعم أن الفساد الثاني سيأتي طال الزمان أو قصر، فيه ينتصر المسلمين وأقول: إعجاز القرآن ثابت بالأدلة العقلية والنقلية، ولا حاجة إلى إثباته بهذه الآية، وقد أبدى كثير من الناس آراء فجة في بعض الآيات، وزعموها من إعجاز القرآن مع أن القرآن غني عن مزاعمهم ودعوى أن المسلمين سينتصرون بعد الإفساد الثاني مجرد أمل يدور بخلد قائله، وليس في الآية إشارة إليه.

ورغم ما أبداه السيد إدريس الكتاني لتأييد رأيه، فإنه باطل وبيان بطلانه من وجوه:

الأول: أن الله تعالى خبر اليهود بما قضى إليهم في الكتاب حين كان دينهم صحيحاً وشريعتهم قائمة، أنهم سيخالفونها بإفسادهم ويعاقبهم بتسليط أعداء لهم ليس لهم دين.

الثاني: أن الله تعالى أخبر عنهم أنهم قتلوا الأنبياء والصالحين، وهذا أعظم الإفساد بلا شك، وفي الحديث الصحيح:"لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم" فكيف بقتل الأنبياء والصالحين؟!!!

الثالث: أن أنبياء بني إسرائيل أنذروهم بإفسادهم الذي حصل مرتين وبالعقوبة عليهما، وهذا الإنذار الذي وقع من الأنبياء كان بوحي إلهي.

الرابع: أن الله قال لهم عَقِبَ المرة الأولى:(إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ) وهذا دليل على أنهم كانوا حينئذ متمسكين بدين صحيح، وهم الآن كفار مغضوب عليهم، لا يتصور منهم إحسان عمل، ولو أمكن وقوعه لا يقبل منهم.

الخامس: أن الله تعالى ترجى لهم الرحمة عَقِبَ المرة الآخرة بقوله: (عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ)، وهذا يدل على أنهم كانوا إذ ذاك على أمل أن تنالهم رحمة الله تعالى لتمسكهم بدين موسى عليه السلام، أما الآن فلا يمكن ولا يجوز أن يتوجه هذا الخطاب إليهم لأنهم كفار آيسون من الرحمة، على أن الضحاك قال في تفسير هذه الآية: كانت الرحمة التي وعدهم بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

السادس: قول الله تعالى لهم في المرة الآخرة: (وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا) يفيد أنهم إن عادوا مرة ثالثة يعاقبهم الله.

قال قتادة: فعادوا فبعث الله عليهم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فهم يعطون الجزية، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما.

السابع: أن الإفساد حصل من بني إسرائيل وعوقبوا عليه وسجله التاريخ وإنذارات أنبيائهم، فكيف يزعم زاعمون أن الإفساد المذكور في الآية لم يحصل إلا في هذا العصر؟ جرأة غريبة لم يسبق لها نظير.

الثامن: أن قول الله تعالى:(بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا) لا يفيد أنهم مسلمون، لأن الخلق كلهم عباد الله.

قال تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ) وقال:(إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ)، (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ)، (لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا)، (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)، (ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)، (إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)، والآيات في هذا كثيرة.

التاسع: أن الله تعالى أعطى لأمتنا المحمدية اسماً خاصاً بها، فقال سبحانه:(مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا...) الآية.

قال ابن عباس (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ) الله عز وجل سماكم، وعن مجاهد (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ) قال: الله عز وجل سماكم من قبل في الكتب كلها وفي الذكر وفي هذا قال: القرآن.

وعن سفيان (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ) قال: الله عز وجل (مِن قَبْلُ) قال: في التوراة والإنجيل (وفي هذا) قال: القرآن، وعن ابن زيد في الآية قال: لم يذكر الله بالإسلام والإيمان غير هذه الأمة، ذكرت بهما جميعاً ولم يسمع بأمة ذكرت بالإسلام والإيمان غيرها، وروى ابن أبي شيبة في المصنف واسحق بن راهويه في مسنده عن مكحول: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:"تسمى الله باسمين سمى بهما أمتي، هو السلام وسمى أمتي المسلمين، وهو المؤمن وسمى أمتي المؤمنين". فالآية والحديث والآثار المذكورة أدلة قاطعة في أن قول الله تعالى: (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا) لم يرد به المسلمين وإنما أراد قوماً حاربوا إسرائيل في ذلك الزمان.

العاشر: أن قول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ)الآية إلى قوله:(وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا) صريح في أن بني إسرائيل غلبوا على آمرهم، وأخرجوا من ديارهم وأبنائهم، بسبب حرب جالوت رئيس العمالقة لهم، حتى طلبوا تعيين ملك لهم يقاتلون معه أعداءهم، فلتكن هذه إحدى المرتين التي أعاد الله لهم فيها الملك وجعل داوود عليه السلام ملكاً عليهم، ولا نجزم بذلك وإن قال به كثير من المفسرين ولكنه احتمال قائم.

الحادي عشر: قول الله تعالى: (وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ) لا يدل على أنهم مسلمون لوجهين:

الأول: أن لغة المسجد ترجمة عما يسمى عندهم بالكنيسة لأن اللغة العبرية ركيكة، والقرآن العظيم منزه عن الركاكة في جمله وألفاظه، والمحراب لفظ عربي والكنيسة وإن كانت معربة ثقيلة في السمع وليس في ألفاظ القرآن ثقل، ألا تراه عبَّر في قوله تعالى:(فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) بالجمع ولم يقل قلباكما، لأن التثنية ثقيلة والجمع أخف منها، وعبر بالجمع في أولي الألباب دون اللب لثقله في السمع.

الثاني: أن بيت المقدس بناه يعقوب عليه السلام بعد بناء جده إبراهيم عليه السلام للبيت الحرام بأربعين عاماً ثم جدد بناءه سليمان عليه السلام، وكان اسمه منذ بنائه بيت المقدس أو المسجد وتسميته هيكلاً اسم حادث عند اليهود بعد تجديده.

الثاني عشر: التعبير بالاستقبال في قوله تعالى: (فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا) هو الحقيقة والواقع لأن الله تعالى أخبر أنه قضى ذلك في التوراة، وبين نزولها ووقوع ذلك من بني إسرائيل مدة طويلة تسمى مستقبلاً حقيقةً لا مجازاً فكيف تُلغى تلك المدة الطويلة التي تزيد على ألف سنة، ويعتبر الاستقبال ما حصل الآن؟! هذا تمحل وتكلف شديدان يردهما معنى الاستقبال في اللغة ولما نزلت سورة (إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ) في حجة الوداع قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:"نُعيت إلى نفسي" وتوفي بعدها بمدة لا تزيد على سنتين فكان الاستقبال الذي أفادته إذاً حقيقة.

الثالث عشر: حديث الصحيحين "تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله" بعيد عن آية بني إسرائيل بُعد الضب من النون، وإنما هو من الأخبار عن الحوادث التي تقع قرب قيام الساعة، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:" لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر وحتى تقاتلوا الترك صغار الأعين حُمر الوجوه ذُلف الأنوف كأن وجوههم المِجان المطرقة"، وفيه أيضا: "لا تقوم حتى تقاتلوا خوزاً وكرمان من الأعاجم"، وحديث قتال الترك ترجم عليه البخاري باب قتال الترك وهو في كتاب الجهاد.

وحديث مقاتلة اليهود ترجم عليه البخاري: باب قتال اليهود وذكره أيضا في باب علامات النبوة، ورواه مسلم في كتاب الفتن، قال الحافظ في فتح الباري ما نصه: في رواية أحمد من طريق أخرى عن سالم عن أبيه:" ينزل الدجال هذه السبخة - أي خارج المدينة- ثم يسلط الله عليه المسلمين فيقتلون شيعته حتى أن اليهودي ليختبئ تحت الشجرة والحجر فيقول الحجر والشجر هذا يهودي فاقتله".

وعلى هذا فالمراد وقوع ذلك إذا خرج الدجال ونزل عيسى وكما وقع صريحاً في حديث أبي أمامة في قصة خروج الدجال ونزول عيسى وفيه: "وراء الدجال سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلى فيدركه عيسى عند باب لد فيقتله وينهزم اليهود فلا يبقى شيء مما يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء فقال يا عبد الله المسلم هذه يهودي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنها من شجرهم". أخرجه ابن ماجه مطولاً وأصله عند أبي داود ونحوه في حديث

سمرة عند أحمد بإسناد حسن، وأخرجه ابن منده في كتاب الإيمان من حديث حذيفة بإسناد صحيح ا.هـ كلام الحافظ

وأي علاقة بين حديث الدجال وبين آية بني إسرائيل؟!!

وبعد فقد توقفت مدة في هذا التفسير المبتدع بل توقفت في معنى الآية الكريمة نفسها ولم يظهر لي وجه تفسيرها وسُئلت مرة عنها فقلت: لم يظهر لي وجهها ولم أفهمها.

ثم بعد تأملٍ وإمعان نظر، تبين لي بوضوح معنى الآية كما فسرها به علماء التفسير، وتبين لي أيضا أن التفسير الذي ذكره المعاصرون مثل الشيخ عبد الرحيم فوده والشيخ متولي الشعراوي والشيخ عبد الحميد واكد والأستاذ سيد قطب والسيد إدريس الكتاني باطل جملة وتفصيلاً، وأن إلصاقه بالآية الكريمة تحريف لمعناها وعدوان على كلام الله سبحانه وتعالى.

ووجدتهم غفلوا عن أمرٍ مهم لو تنبهوا له لما صدر عنهم ذلك التفسير الباطل، ولما كتب السيد إدريس الكتاني رسالته التي سماها: العرب تحت وطأة الإفساد الأول لبني إسرائيل وإيضاح ذلك: أن موسى عليه السلام حين بعثه الله إلى بني إسرائيل كانت الوثنية غالبة على المنطقة التي بعث فيها من البابليين وفارس والكنعانيين والعمالقة والبطالسة ولم يكن فيهم من يعبد الله ويوحده، بل كانوا مجوساً وعباد الكواكب، فلما عرف بنو إسرائيل التوحيد الذي جاء به رسولهم وعبدوا الله كما في شريعتهم، أظهر الله عنايته بهم وأول ذلك أنه فضلهم على ذلك العالم الوثني، وهو معنى قوله تعالى: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)[٢]، ومن عنايته بهم أنه أنزل عليهم التوراة فيها أحكام وتشريعات تتناسب مع ظروفهم ومجتمعهم، وزاد في تكريمهم لأجل كليمه عليه السلام، ووالى عليهم بعث أنبياء منهم في كل جيل يرشدونهم ويهدونهم الطريق القويم، ولِما يعلمه الله من خبث طينتهم وفساد طويتهم أنذرهم في التوراة وفي كتب الأنبياء بعدها بما يحصل من المخالفات لهم وبعقابهم عليها.

ومن جملة ما أنذرهم به ما ذكره تعالى في قوله سبحانه: (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ) الآية، وكان عقابهم عليهما أن بعث عليهم أعداءً وثنيين لا يعرفون الله ولا يخافون عذابه، ولذلك قال: (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا) فذكر عباداً تقليلاً لشأنهم وتحقيراً لهم ولم يكن تنكيرهم لأجل أنهم مؤمنون كما قيل.

واستمر حال اليهود وهم على شريعة موسى عليه السلام مدة تزيد على ألفي سنة، حصل فيها الإفسادان المذكوران في الآية وغيرهما.

فلما جاء الإسلام وبعث النبي عليه الصلاة والسلام حسدوه وأظهروا عداوته وحاولوا قتله مرتين، وتواعدوا مع قريش على محاربته في غزوة الخندق، فلما أظهروا الكفر الصريح والعناد القبيح تخلى الله عنهم بل غضب عليهم ولعنهم وانزل في ذمهم عدة آيات منها: قوله تعالى: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ)، وقوله سبحانه: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ)،وقوله جلّ شأنه: (قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)، وقد نَفَّذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية في قتال يهود خيبر والنضير

[٢] ومن هنا نشأت عند اليهود عقيدة أنهم شعب الله المختار وهي خطأ، لأن الله لم يفضل جنساً أو شخصاً لذاته وإنما فضله ما عنده من الطاعة والاستقامة، قال تعالى: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، وقال سبحانه: (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به)،(وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق).

وقريظة وصح في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تفسير (غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ) قال: (وهم اليهود)، وجاء ذمهم أيضاً في سورة البقرة والأحزاب والحشر والجمعة وغيرها.

فصار اليهود بعد نسخ دينهم وكفرهم بالإسلام طائفة من الكفار مثل المجوس والمشركين، بل هم أبغض إلى الله من جميع أنواع الكفرة، لا يبالي بهم بالة فلا يعقل ولا يجوز أن يقول لهم في هذا الوقت (إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ) لأنهم بعد كفرهم لا إحسان لهم ولا حسنة، ولا يجوز أن يقول لهم (عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ) لأنهم لا رحمة تلحقهم وغلبتهم على بيت المقدس وفلسطين سببها ضعف العرب والمسلمين، وتفرقهم واشتغالهم بشهواتهم ومصالحهم الشخصية، فلا يجوز أن نتملص من هذه الكارثة التي حلت بنا لضعفنا وتفرقنا وترك تعاليم ديننا، ثم نلقي تبعتها على أن القرآن أخبر بها، هذا لا يجوز أبداً والقرآن بريءٌ مما ينسب إليه براءة الذئب من دم ابن يعقوب، فيجب على العرب والمسلمين أن يجتهدوا في تخليص القدس من اليهود لعنهم الله، وينبذوا من عقولهم وقلوبهم الأماني الفارغة والتفسيرات الملصقة بالقرآن زوراً وكذباً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

خاتمة

منذ فتح الشام في عهد عمر رضي الله عنه، لم يكن لليهود دولة في فلسطين، بل كانوا يعيشون فيها أقلية تحت ذمة المسلمين، وكانوا متفرقين في بقاع الأرض، وفي القرن الثامن عشر بدأت محاولتهم لامتلاك فلسطين والسيطرة عليها، فخاطبوا السلطان عبد الحميد في ذلك وأغروه بالمال، فلم يقبل منهم رحمه الله وقال لهم: فلسطين بلد المسلمين لا أملك التصرف فيها بشيء فحاولوا إسقاطه بإطلاق دعايات كاذبة في الصحف والمجلات، وأحدثوا الإضرابات في تركيا واليونان وغيرهما ضد حكمه، وضد الخلافة من أصلها، وانساق معهم المغفلون من العرب والمسلمين، وقامت الحرب العالمية الأولى فوجدت بريطانيا عدوة الله وعدوة المسلمين الفرصة سانحة لإسقاط الخلافة الإسلامية، فأثارت شعوب مصر والشام والعراق والحجاز على تركيا واعدةً لهم بالاستقلال بعد انتهاء الحرب، وطلبت من الإمام يحيى أن يثور على تركيا أيضاً ويحاربها، فامتنع من ذلك وقال لها: لا أحارب المسلمين فكان هذا منه موقف إسلامياً مشرفاً عرفه له المسلمون بالإعجاب والتقدير، وأنشأ صديقنا الأديب الفاضل الأستاذ الشيخ مصطفى بو عشرين رحمه الله قصيدة في الثناء على الإمام والإشادة بفضله جاء في مطلعها:

هكـــذا هكـــذا يكـــون الوفـــاء فلِنعـــلِ الإمـــام خـــدي وطـــاء

وعقب انتهاء الحرب مباشرة سنة ١٩١٨ أخذ اليهود من وزير خارجية بريطانيا واسمه بلفور وعداً بإعطائهم وطناً قومياً في فلسطين، ولما استقرت الحال بعد الحرب نكثت بريطانيا بوعدها للعرب، فأعلنت تمسكها بالحماية على مصر، واحتلت العراق وقسمت الشام إلى أربع دويلات أعطت منها سوريا ولبنان لفرنسا، واحتفظت بفلسطين عندها لتسلمها لليهود، وحطت في الأردن الأمير عبد الله ابن حسين شريف مكة، وسمتها إمارة الأردن، وهي اليوم مملكة ما أظنها تبلغ مليون نسمة، وعرف العرب حينئذ أن بريطانيا غادرة خائنة لا عهد لها ولا وفاء لكن بعد فوات الأوان، واستمروا رغم ذلك في الثقة بها والتعامل معها.

وفي سنة ١٩٢٥ تقريبا أعلن أتاتورك عدو الله إسقاط الخلافة وإلغاء الإسلام، وأعلن أن تركيا دولة علمانية، وألغى اللغة العربية من البلاد التركية، وأباح زواج المسلمة بالنصراني، وسوى بين الذكر والأنثى في الميراث، ومنع السفر إلى الحج منعاً باتاً، وفي سنة ١٩٣٧ اجتمعت شُذاذ من اليهود تنتمي إلى عصابات لهم إجرامية بقصد أخذ فلسطين وانتزاعها من العرب بالقوة، فتركتها بريطانيا وتخلت عنها، وهي متيقنة أن اليهود سيتغلبون عليها،

وحصل قتال بين العرب وشراذم اليهود وظهر تخاذل العرب وخيانة كثير منهم، وكان قتالهم مهزلة ومع ذلك ورغم ذلك كادوا يصلون إلى تل أبيب، ولكن بريطانيا الصهيونية اقترحت الهدنة فوافق العرب لأنهم يحبون بريطانيا وينفذون ما تقوله لهم، وكانت الهدنة سبيلاً إلى استيلاء اليهود على فلسطين، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأخيرة اعترفت الأمم المتحدة بهم دولة في فلسطين، وبعد الاعتراف بهم سموا أنفسهم دولة إسرائيل.

هذا عرض موجز لحركة اليهود وحربهم في سبيل الاستيلاء على فلسطين، يُعلم منه أن العرب إنما قاتلوا عصابات من اليهود لا كيان لهم ولا دولة ولا وطن، وهم الذين هاجموا العرب وجاسوا خلال الديار في فلسطين العربية بغية أخذها من أصحابها الشرعيين.

فتفسير الآية بهم كما فعل المعاصرون مبني على غير أساس، ثم أن الآية الكريمة تكلمت على بني إسرائيل وهؤلاء الشراذم سموا أنفسهم إسرائيل، فتفسير الآية بهم باطل شكلاً وموضوعاً.

وبالله التوفيق.